

وكان من الطبيعي أن تنتهي « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية » عند نهاية الفنون الثلاثة الأولى ، ولكن العالم المفكر « ابن النفيس » رأى أن يستطرد في قصته ليبين للناس في « الفن الرابع » رأيه فيما وقع للمسلمين بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، معتمدا في ذلك على آرائه التي كونها من دراسته لبداية التاريخ الإسلامي ؛ ثم تطرق أثناء ذلك إلى دراسة حال المسلمين في العصور المتأخرة وبخاصة في القرنين السادس والسابع ، محاولاً أن يبين الأسباب التي أدت إلى ضعف المسلمين وهزيمتهم أمام التتار ، كما حاول أن يوضح الأسباب التي ساعدت على صمود مصر والشام أمامهم ، ذاكرا الكثير من أخلاق حكام المسلمين في عهده ، ومتحدثا عن كثير من عاداتهم وصفاتهم ؛ ولا شك أن رأى « ابن النفيس » فيما حدث في زمانه له قيمته الخاصة فقد عاصر الكثير من الحوادث الجسام ، ومهدت له زعامته في مهنة الطب الاتصال بالحكام وبكثير من رجالات عصره وبجماهير الشعب ؛ ولكننا ، برغم ذلك كله ، لا نستطيع أن نتفق وإياه على بعض ما استنتجته من آراء نرى أن المقدمات المنطقية والحجج التي ذكرها لا تسوغ له أن يصل إلى تقريرها ، وسوف نذكر رأينا عند التعليق على كل فصل من فصول هذا الفن .

الفصل الأول :

تكلم « ابن النفيس » في هذا الفصل الأول عن الخلافة ، وبيّن الحاجة إليها بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى لأنه « لا بد وأن يكون بعده من يدعو الناس إلى دينه ويلزمهم اتباعه » فذلك هو خليفته ، « وينبغي أن يكون ذلك في كل زمان ليكون دينه محفوظا دائما » واشترط « أن يكون كل واحد من هؤلاء الخلفاء ممن تعظمه الناس »